هاينريش بول ... شاهد على عصر مضطرب*

2-1

الدكتور صلاح حاتم

لماذا هاينريش بول؟ لأنه كاتب الماني عاش سنوات صعود النازية في المانيا، وجند في حروبها، وشهد انكسارها واحتلال بلده من قبل قوات التحالف الديمقراطي. انه من هذه الناحية كاتب خبر الحياة في ظل نظام حطم المانيا، وحول الثقافة الديمقراطية ذات المضمون الانساني الى ثقافة عنصرية تؤمن بأن المانيا فوق الجميع، وان الفوهرر فوق هذا الجميع. كيف كان يمكن لكاتب ان يتسلل من هذه الثقافة، ويستعيد الحس الانساني مجدداً، ويمتلك المهارة السياسية والفنية لكي يضحى الناطق الحي باسم المواطن الالماني المأزوم الذي سرقت حياته والذي شهد دمار بلده، كما شهد عملية اعادة البناء، بكل تفاصيلها الحقيقية والزائفة ألم يحدث هذا في العراق؟ اننا لا نزال في الطريق، وقد خرجنا تواً من اسر النظام الفاشي بواسطة الاحتلال الاجنبي، وما زالت عملية اعادة البناء تتقاذفها الصعوبات مقترنة بالاحتلال وبقوى الردة. ماذا يفعل المثقف في مثل هذه الظروف؟ هل يترك الميدان، ام يعيد انتاج ثقافة جديدة، قادرة على العمل، باسم الذكاء والشرف والمستقبل؟ حياة هاينريش بول، الحائز على جائزة نوبل في الاداب، في مواقفه ورواياته، هي انموذج لمبدع قدم حلاً

-1-

ولد في الواحد والعشرين من كانون الأول سنة 1917 في مدينة كولونيا على نهر الراين، المدينة التي ساءت فيها حال هتلر أكثر من أي مكان آخر، إذ أن سكانها ألقوا بأصص الورد عليه واستقبلوا مساعده الأيمن غورينغ بالهزء والسخرية، فالكولونيون بلحمهم ودمهم كانوا من أشد المعارضين للنزعة العسكرية ولدعاتها. أمضى في مسقط رأسه ثلاث عشرة سنة في المدرسة وحاز على الشهادة الثانوية في سنة 1937. نشأ وترعرع في فترة ما بين الحربين. حين تولى هتلر مقاليد الحكم في كانون الثاني سنة 1933 كان هذا أهم وأخطر تجربة مر بها بول في مرحلة الصبا.

يقول بول: "أمر مضحك: أنني كنت في غنى عن أن أصبح نازيا مع أن جيلي كان مهيأ لذلك." والحق أنه كان لهتلر أنصاره ومؤيدوه وسط الشبيبة الألمانية، فالنازية تملقت الشبيبة وغررت بها وأرضتها، معتمدة في ذلك على مثاليتها المشوشة وميلها إلى التمرد على الجيل الأكبر سنا، على أننا نجد بول مرتبطا بأسرته ارتباطا وثيقا، والبيت الذي نشأ فيه كان يسوده جو من النقاش الحر والحرية الداخلية والتواضع والجد، وما من موضع في أدب هذا الكاتب ينم عن أن هناك سوء علاقة بين الأب والابن أو رفضا للقيم أو هجوما على عائلة أو كرها صريحا أو دفينا تجاه الأسرة. يقول بول: "أبواي، اخوتي وأخواتي وأصدقاء كثر وأصدقاء أصدقائي وبعض أساتذتي حفظوني من أن أصبح نازيا".

بعد حصوله على الثانوية التحق في بون للتدريب المهني لتجارة الكتب، لكنه ما لبث أن ترك هذا العمل بعد تسعة أشهر لأنه وجد صعوبة في أن يمضي ثلاث سنوات ونصف ليكسب بعدها القليل من المال (إذ أنه كان يكسب آنذاك اثني عشر ماركا في الشهر).

في سنة 1938 تم استدعاؤه إلى العمل الجماعي الذي كان أداؤه شرطا للتسجيل في الجامعة؛ في أثناء ذلك كان هذا العمل قد صار منظمة نازية إرهابية وكان أشبه بمعسكرات (الاعتقال: أعمال شاقة في ظروف صعبة كانت أقرب إلى السخرة، وقليل من الطعام، أعمال زراعية في الشتاء واستصلاح أراض وتصريف مياه وتجفيف مستنقعات).

سجل بعد ذلك في الجامعة لدراسة اللغات القديمة، وفي تموز سنة 1939 وقبيل اندلاع الحرب بأسابيع قليلة استدعي إلى الجيش وهو شاب في الحادية والعشرين، وكان ناضجا في أعماله. وساقته الحرب من فرنسا إلى روسيا عبر رومانيا والمجر ومر بتجربة الحرب وجرح أربع مرات، وبدءا من تشرين الأول سنة 1944 نجده يتنقل جنديا فارا بأوراق مزورة سرقها من أحد الكتائب فكانت إجازات مفتوحة موقعة على بياض واستمارات مهمات مفتوحة إضافة إلى خاتم لختم الأوراق. انتهى المطاف بأديبنا بول كما انتهى بملايين الألمان في معسكرات السجون الانكليزية والأمريكية بعد أن انهزمت ألمانيا على كل الجبهات في الداخل والخارج.

حين انتهت الحرب كان بول في الثامنة والعشرين، في سن تكفي لأن يعرف ما حدث وما شارك فيه. في نهاية تشرين الثاني سنة 1945 عاد إلى الوطن المدمر إنسانا مريضا وسط فلول المهزومين، إلى بلد كان لا بد من بنائه بناء ماديا ومعنويا، وعاد إلى كولونيا المدمرة حيث كان الأهل ينتظرونه. أعاد ارتباطه بالجامعة وعمل في منشرة كان أخوه يملكها لكي يكسب قوته اليومي. على أنه ترك العمل وتوظف بين سنة 1950 وسنة 1951 في دائرة للإحصاء بمدينة كولونيا. وفي سنة 1955 تفرغ للكتابة وشغل من سنة 1970 ولغاية 1972 منصب رئيس اتحاد الكتاب الألمان الغربيين ثم رئيس اتحاد الكتاب العالمي.

حصل بول على جوائز أدبية كثيرة وميداليات ومنح ثلاث دكتوراه فخرية: الأولى سنة 1973 من جامعة دبلن، والثانية في السنة نفسها من جامعة أستون/بيرمينغهام والثالثة من جامعة برونل/أوكسبريدج (Uxbridg). وتوجت هذه الجوائز جائزة نوبل للأدب سنة 1972 عن روايته "صورة جماعية مع سيدة" (1971) والتي ترجمناها إلى العربية وصدرت في سلسلة مكتبة نوبل عن دار المدى لعام 2002.

-2-

في السادس عشر من تموز سنة 1985 رحل بول عن هذه الدنيا تاركا إرثا أدبيا كبيرا.

كتب القصة والرواية والتمثيلية الإذاعية والتلفزيونية والمسرحية وسلسلة من الأعمال النقدية تتناول الأدب وممثليه وقضايا الساعة. وعمل في مجال الترجمة من الهولندية والانكليزية بالاشتراك مع زوجته آنا ماري (بيرنارد مالامود، جيرومي دفيد سالينغر، باتريك وايت، بول هورغان، برندن بيهين (امريكا)، أندريان موريان (هولندة))

كان بول أحد أولئك الكتاب الذين كان عليهم أن يكتبوا كثيرا لكي ينجزوا ما هو جيد بحق.

يقول بول: "أردت أن أكتب دائما وحاولت ذلك في وقت مبكر، بيد أنني لم أجد الكلمات إلا فيما بعد".

في صيف سنة 1939 كتب بول رواية في شكل يوميات بعنوان "في محيط الكنيسة" حين رأى الحرب العالمية الثانية آتية وكان ينتظر سحبه إلى الجيش الهتلري. على أن هذه الرواية لم تبصر النور شأنها شأن عدد كبير من النصوص النثرية.

أما البدايات الفعلية للكتابة فتعود إلى سنة 1946، وقد نشر بين سنة 1947 وسنة 1950 ثلاثين قصة قصيرة. مجموعته القصصية الأولى التي تحمل العنوان "أيها الجوال، إن جئت إلى سبا..." ضمت خمسا وعشرين قصة، إلا أنها بقيت هي وقصته الطويلة "القطار جاء في موعده" (1949) عند صدورهما خارج دائرة الاهتمام.

على أن بول لفت انتباه الجمهور بقصته "العلاون" (الترجمة الحرفية: "الشياه السود") (1951) التي فازت بجائزة المجموعة 47 لعام 1951.

وبدءا من عام 1953 يزداد الاهتمام بالكاتب وبات له قراؤه المتحمسون خارج حدود ألمانيا واللغة الألمانية.

فروايته "ولم ينبس ببنت شفة" التي صدرت سنة 1953 حققت نجاحا ملموسا فقد أعيد طبعها في العام نفسه ثلاث مرات وجرت عليه جوائز أدبية في داخل البلاد وخارجها.

في سنة 1954 نشر بول رواية "بيت بلا راع"، وفي سنة 1955 طلع على الملأ بالقصة الطويلة "خبز السنوات الأولى" وتلتها في سنة 1957 "يوميات ايرلندية". كانت ثمرة التجربة التي أسفرت عنها إقامته المتكررة على الجزيرة الخضراء وتضم نصوصا

التي يبلغ عددها نحو ثلثي عشرة قصة، فما يشاهده هناك من عادات وتقاليد وعيش هانئ رضي يفتنه فيصوغه صياغة تكتسب طابعها العام.

كتاباته الساخرة أو أهاجيه جمعها سنة 1958 في كتاب أسماه "مجموع صمت الدكتور موركي". استطاع بول أن يوسع دائرة شهرته بشكل مستمر بحيث إنه رشح في سنة 1958 الجائزة نوبل للأدب.

رواية "البليارد في التاسعة والنصف" صدرت في سنة 1959 وبهذا العمل الأدبي استطاع بول أن يسهم مساهمة محترمة في مسيرة الأدب الألماني بعد الحرب ليلحق بركب التطورات والمستويات الأدبية العالمية.

على أن رواية "آراء مهرج" التي صدرت سنة 1963 لقيت الصدى الأقوى لدى الجمهور لما فيها من نقد للكاثوليكية المحلية والإصلاح؛ وحين تسلم جائزة بوشنر للأدب في سنة 1967 وصفه أحد النقاد الألمان بأنه الممثل للأدب الألماني بعد الحرب وكاتبه الكلاسيكي.

فالشهرة الواسعة التي اكتسبها في أثناء ذلك يؤكدها انتخابه رئيسا للاتحاد الكتاب العالمي في أيلول سنة 1971.

لكن ذروة التقدير العالمي لهذا الكاتب يسجله عام 1972 حين منحته الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للأدب على روايته "صورة جماعية مع سيدة" (1971) التي تعد بحق أهم أعماله الروائية وتمثل خلاصة مؤلفاته الأدبية السابقة، بل إنها عدت من الكتب الأكثر رواجا أو مبيعا وترجمت إلى أكثر من خمس وعشرين لغة.

.3.

يعد بول مؤرخ عصره، أو أنه "المؤرخ الرسمي لجمهورية ألمانيا الاتحادية" إذا صح التعبير. فما من كاتب بقي بكتاباته ألصق بالواقع الألماني على نحو مستمر مثل بول المتمرد الوديع، ذلك أن مؤلفاته تصور تطور ألمانيا الاتحادية إلى اليوم وتنتقدها بدءا من أول القصص العائدين من الحرب وفترة ما بعد الحرب مرور أبروايات الإصلاح وإعادة التعمير والمعجزة الاقتصادية وانتهاء بكتبه عن الصحافة الألمانية وهستيريا الإرهابيين وما إلى ذلك.

بعد موت بول عبر زميله الكاتب سيغفريد لينس عن قناعته فقال: "هاينريش بول الكاتب الذي أراد أن يصور في عمله عصره فقط وبذلك كتب لكل الأزمان ولن يطويه النسيان." وتكمن أهمية مؤلفاته الإبداعية في أنها تتفادى عجز الذاكرة وتجعل الألمان شركاء في مخزون الذاكرة الذي يثقل عليهم أكثر مما يبرئ ساحتهم.

في سنة 1949 يحدد بول رسالة الكاتب ويبدي رأيه في عملية الإبداع الفني، ذلك أنه وجد مهمة الكاتب في أن يسمي الأشياء بأسمائها.

وبما أن معرفة الواقع مهمة تتطلب الاهتمام العملي لا السلبي فإنه يستدعي إلى الذاكرة الفوضى والضياع والجوع بين الأنقاض. في مقال كتبه بعنوان "اعتراف بأدب الأنقاض" (1952) يؤكد بول على مهمة التذكير فيذهب إلى أن "الدمار في عالمنا ليس من النوع الخارجي وليس بذي طبيعة تافهة لا تذكر بحيث يستطيع المرء أن يدعي بأنه قادر على تسويته في سنوات قلائل".

وبهذا يكون بول كاتبا ملتزما، والالتزام في نظره ارتباط بالعصر وبما مر به من مآس؛ إنه الارتباط بقلق وتشرد جيل وجد نفسه في عمر الأجداد ولما ينضج بعد.

يبرز في أدب بول عالم قاس فظيع غير منمق؛ إنه الواقع اليومي لسنوات الحرب وما بعد الحرب بكل ما فيه من أشياء وأماكن ومواقف وبشر. الحرب سخافة كبيرة، الحرب استنفاد للطاقات وسلسلة من الحوادث التي يصعب فهمها على الأفراد. الحرب هي السوق السوداء والجوع والفراق والغربة والملل وكره الذات وعرق الخوف البارد وهذيان الجرحى.

وقصصه التي موضوعها الحرب تكاد تنتهي كلها بالموت. بول لا يصف الحرب وصفا مباشرا، بل يقتصر وصفه على ما وراءها من مكاتب ومحطات ومستشفيات ميدانية ونقل للجرحى ومدن تحترق.

العمل الأدبي الأول "القطار جاء في موعده" (1949) انبثق من تجربة الحرب وتصف الرواية فترة زمنية قصيرة في حياة الجندي أندرياس من الأربعاء إلى صباح الأحد بدءا من اللحظة التي ينطلق فيها القطار من مدينة في منطقة الرور حاملا إلى الجبهة الشرقية جنودا يخدمون هناك وكانوا في إجازة في سنة 1943، ويظهر على الجندي أندرياس، وهو واحد من عشرات الآلاف، أنه خائف ويعرف أنه سائر إلى الموت؛ والخوف من النهاية يبدو خوفا طبيعيا إنسانيا؛ فالحرب لم تعد قتالا فحسب، بل أصبحت أيضا انتظارا ثقيلا لا معنى له. في النصف الثاني من القصة يمضي الجندي أندرياس ليلته الأخيرة في مبغى بولندي مع امرأة شابة ويتبادلان العواطف والاعترافات بالخطايا في الحياة ويبكيان معا ويعزفان بيتهوفن وشوبيرت على العزف. ويخططان للهرب، وفي صبيحة اليوم التالي يموتان قتيلين إثر سقوط قنبلة على عربة القطار المكتظة التي كانا فيها.

يرى هاينريش بول أن حبا من هذا القبيل قادر وحده على أن يحرر، حب يؤدي تلقائيا إلى تجديد الإنسان تجديدا أخلاقيا. "أينما سرت ستكون الحياة. فتعال!" تقول أولينا المومس البولندية للجندي الألماني الذي لم تكن له أية تجربة مع أية امرأة من قبل، وتعده بالنجاة من الموت المحقق وهي التي كانت أحد عناصر المقاومة.

بول كتب القصة بلغة شفافة هادئة وبأسلوب بعيد عن كل انفعال فما يعرضه بول ليس إلا صورا أو لقطات آنية وإضاءات للنفس ولعالم الأحاسيس والأفكار عند جندي عادي غير مهم، مستهلك في الحرب وعاجز عن أن يحمي نفسه. فالنغمة الأساسية موضوعية. فن بول القصصي لا روائي بمعنى السرد العريض أو النسيج الواسع المتشعب الذي يميز الرواية التي ترمي إلى صيغة كلية.

- 4 -

موضوع روايته الأولى "أين كنت يا آدم؟" (1951) الحرب والموت أيضا. في حرب كهذه لا يوجد أبطال. فالجندي والضابط وقائد العسكر، كل هؤلاء ينتظرهم موت حقير. شخوص بول ليسوا ذواتا مستقلة، فتارة نجدهم في أحد فصول الرواية يحتلون مركز الحادثة وتارة أخرى نجدهم في فصل آخر مجرد كومبارس. سيرتهم الذاتية غير مكتملة الأجزاء، وتكمن السخرية المأساوية في أن (فاينهالس)، بطل الرواية، يصل إلى مسقط رأسه بعد حرب دامت ست سنوات، ويجد الأعلام البيضاء ترفرف على سطوح المدينة، فالامريكان دخلوها فاتحين. وعند عتبة باب البيت تسقط آخر قنبلة يطلقها جنود ألمان فترديه قتيلا، وتتحطم سارية العلم فوقه فتغطيه.

اللغة التي يكتب بها بول لغة بسيطة تخاطب الحس أكثر مما تخاطب العقل. فالمسألة هنا ليست مسألة استمرار حياة فردية، بل مسألة إشكالية مصير إنساني عام. فكل إمكانية للأدمية تفقد معناها حيثما كانت الحرب. ويكون الموت المجرد من كل صفة تنم عن بطولة. ومطلب بول أن يجرد الحرب من طابعها الأسطوري بحيث ينزع عنها هالة الجلال والعظمة المثالية.

المجموعة القصصية "أيها الجوال، إن جئت إلى سبا..." تلقي الضوء على مصير الإنسان الصغير في سنوات الحرب وما بعد الحرب. هنا يبدي بول أيضا تعاطفا مع المغلوبين على أمرهم، سواء كان تاجر السوق السوداء الذي تبحث عنه الشرطة أم طالب المدرسة الذي يعرضه عدم فهمه للرياضيات لتغييرات وتوبيخات الأستاذ الدائمة فلا يحصد من جراء ذلك كله إلا اللقب (صانع المكانس). وفي أوديسا وقبل أن يتم شحنه بالطائرة التي ستسقط فيما بعد يراقب أول مرة صانعا حقيقيا للمكانس يؤثر فيه تأثيرا مريحا وهو يقوم بعمله المتواضع المفيد بكل هدوء وبساطة؛ وفجأة تصبح إهانات أستاذ الرياضيات غير ذات معنى؛ وقبيل موته يغبط صانع المكانس الذي لا يمنعه مانع من مزاولة مهنته البدائية المتواضعة، ولا ننسى الرجل في قصة "وجهي الحزين" الذي لا يستطيع أن يضحك في ظل حكم دكتاتوري يأمر كل إنسان أن يكون سعيدا وإلا عرض نفسه للعقوبة. فقانون الدولة رقم (1) في هذا البلد الخيالي ينص على أن كل "شرطي يستطيع أن يعاقب أي إنسان".

-5-

روايتان "ولم ينبس ببنت شفة" (1953) و"بيت بلا راع" (1954) موضوعهما الحياة في الأسرة بعد الحرب وتقدمان الدليل على النضج التدريجي لقدرة بول على التصوير. فالحرب جعلت الكثيرين من الرجال طائشين مستهترين ينقصهم الشعور بالمسؤولية: إذ أنها اقتلعتهم من جذورهم، وفي هذا شيء من العدمية، كما أنها دللتهم أيضا بأن جعلتهم لا يهتمون بشيء: الطعام جاهز واللباس جاهز والمأوى تحت التصرف.

فالزوج بوغنر يعود من الأسر إلى بلد دمرته القنابل وإلى مدينة أشباح ويجد زوجته التي طبعت وجهها هموم الحياة وتجاربها بطابع القسوة والمرارة وإلى جانبها أطفال ثلاثة يكاد لا يعرفهم؛ ومع أنه يحب زوجته وأطفاله ويعمل قدر المستطاع ليكسب بعض المال، إلا أنه لا يتحمل عبء الواجبات الشرعية المقرونة بالزواج ويضيق ذرعا بالحياة في غرفة واحدة هدفا لمضايقات تافهة وعنت مؤجرين فضوليين أنانيين وجهلاء يؤمون الكنيسة بانتظام. أزمته هي إذا أزمة سكن وعسر وقلة مال يقول: "شقتنا صغيرة جدا، هنا كل شيء... ومن أجل شقة أكبر يحتاج المرء إلى مال ويحتاج إلى الشيء الذي يسمونه قدرة، أما نحن فلا مال عندنا ولا القدرة..." وعلى هذا يترك البيت ويضرب على غير هدى في أحياء كولونيا المدمرة وينام على أحد مقاعد صالات الانتظار في المحطة ويأكل في حانات رخيصة ويخبر زوجته ويرسل إليها نقودا ويلتقي بها، إلا أنه لا يعيش معها عيشة حقيقية فيتركها تغالب وحدها كل شيء بما تبقى لديها من طاقة وشجاعة. هنا نلتقي بالمرأة الصابرة التي تتحمل الآلام وتتغلب على الاضطرابات النفسية التي يعانيها زوجها، عامل التلفون البسيط الميال إلى السكر.

أبطال بول يعرفون في الأقل أن شيئا ما، شيئا جوهريا ينقصهم وأن وجودا حافلا بما هو إنساني يبقى ممتنعا عنهم.

كيتي بطلة الرواية تتحمل كل شيء صابرة، وبصبرها وحبها الزوجها وأطفالها تنتصر على كل شيء مثلما انتصر المسيح على الخطيئة بالتضحية والمحبة الراسخة.

كان من الممكن أن يصبح العالم جحيما ومكانا لليأس لو لم تتقد بين حين وآخر شعلة الحب الخافتة.

كيتي: "وأرى وجه فريد fred أصار هرما على نحو قاس وشديد وأتت عليه حياة ربما كانت عديمة الجدوى لو لا الحب الذي تبعثه في صدري".

في وسعنا أن نعتبر هذه الرواية قصة خلاص، هنا إذا عددنا الزوج بوغنر خاطئا بالمفهوم الديني والأخلاقي، أما الزوجة كيتي فهي قديسة حملت صليبها بصمت؛ وفي الإمكان تفسير عودة الزوج إلى البيت بأنها رحمة أو نعمة استحقتها الزوجة الصابرة.

بول يلقي الضوء على البنى الدقيقة في هشاشتها وتفككها، على حين يسود الاعتقاد أنها ستبقى إلى الأبد مثل الزواج والكنيسة. وغاية بول أن يصور الإنسان الذي أذلته الحرب بأن يجعله يبحث بعد انتهاء الحرب عن طريق الحق والحب عبر الفوضى المادية والأخلاقية: الموت والعودة إلى الحياة، عبء الحياة ونعمة الحب أو الحنو الإنساني هما القطبان اللذان تمتد بينهما مؤلفاته الأدبية. للمرأة أهميتها لا من الناحية الجنسية ولا من حيث إنها ربة بيت وأم فحسب، بل كوجود وفرد له كيانه الخاص.

في رواية "بيت بلا راع" (1954) نجد النساء يقفن وحيدات ويربين أطفالهن وحدهن. فالأزواج إما أموات وإما أسرى وإما مفقودون. وطبيعي أن في حياة هؤلاء النسوة "بدلاء" أو ما يطلق عليهم "أعمام" تحسب التساؤلات الأطفال. فالترمل مشكلة معقدة وحساسة. وإن امرأة فقدت زوجها أو رجلا فقد امرأته التي أحبها لهو موضوع من أدق الموضوعات وأشدها حساسية لأن كثيرين ربما وجدوا أنفسهم في وضع تغلب عليه الحيرة والضياع، ولأنه سيكون للشيء الجنسي دوره، ولو كان دورا ثانويا، إلا أنه سيبرز في واجهة الأحداث. بول تناول هذا الموضوع بشكل ملموس وكتب الرواية من منظور صبيين في الحادية عشرة، مارتين وهاينريش، قتل أبواهما في روسيا، وكل منهما يكتشف أن أمه تفتقد شيئا ما.

مارتين يحف به يسر ورخاء، على أن حياة أمه العاطفية تعطلت في أحلام يقظة وتذكر فارغ لزوجها الذي كان شاعرا مجيدا.

أما هاينريش فظروفه لا تقاس بظروف رفيق المدرسة على الإطلاق من حيث العلاقة النفسية والمادية؛ إذ أن حياة أمه وقف على سلسلة من "الأعمام" يحل أحدهم محل الآخر ويقوم بأود العائلة. فقد مات عنها زوجها وهي بعد في الثانية والعشرين تفور حيوية وشبابا وجمالا. ومن أجل الابن ترغب في الزواج، وتقرر بأن تكون عشيقة الخباز الغني الذي تحتقره في سرها. وعلى مرأى من الجيران الذين يدعون العصمة يتم الانتقال المهين إلى بيت الخباز. بول يريد أن يصور في أم هاينريش السيدة بريلاخ نموذج المرأة القوية الشكيمة المتعطشة للحياة التي لا تتردد في أن تتحمل أقسى الإهانات في سبيل بقائها وبقاء أسرتها.

"خبز السنوات الأولى" (1955) قصة حب كبيرة. بطل القصة، فالتر فيندريش Fendrich ميكانيكي واختصاصي في تصليح الغسالات الكهربائية: له دخل جيد وعنده سيارته الخاصة ويخرج مع (أولا) ابنة معلمه التي ينوي الارتباط بها، ويحكم على الناس والأشياء من حوله بما لها من قيمة نفعية مادية. وذات يوم تأتي إلى المدينة الفتاة (هيدفيك) ابنة أستاذه الأسبق لتلتحق بأكاديمية التربية وكان قد رآها قبل سبع سنوات فتاة في الثالثة عشرة من عمرها. ومن اللحظة الأولى يصبح لقاؤهما حلما، إذ أنه يحس بأن الفتاة خلقت لتكون الزوجة، وفي اليوم نفسه يقاطع معلمه وابنة المعلم التي يلتقيها اللقاء الأخير ويحدثها عن الجوع في سنوات ما بعد الحرب الذي كاد يودي به إلى الجنون: فوحدة حساب تلك السنوات كانت الخبز الذي كان عند معلمه فقط. ومن أجل الخبز سرق سخانات كهربائية وباع كتب أبيه القيمة.

فتجربة الجوع الدائم تغلب على تذكر فيندريش: يقول: "علمني الجوع الأسعار، فالتفكير بخبز طري جعلني بليد الذهن، وكثيرا ما جبت المدينة في المساء ساعات طويلة ولم يخطر ببالي شيء آخر إلا: الخبز. [...] كنت متلهفا إلى الخبز [...]" كانت متعته الوحيدة في ذلك الحين الحقد على من كانوا يرفلون في النعيم ولا يعرفون الجوع. أما (أولا) ابنة المعلم التي كان المال حتى هذه اللحظة وحده حسابها الوحيد فيظهر أنها فهمته، ولكن بعد فوات الأوان، إذ أن الحب الذي توقد في صدره حماه من أن يعيش حياته كلها العيش التافه لإنسان محدود الأفق، ماهر في كسب المال وجمعه. ويتحول الحب إلى قوة مطهرة منورة تجعل البطل يكتشف لنفسه ولمحيطه معايير جديدة. ويعرف المحبان أن كلا منهما هو للآخر ويتصرفان ببالغ الجد: إذ كان خطؤهما أنهما لم يتزوجا زواجا كنسيا فإنهما استجابا مقابل ذلك لقانون الحياة الطبيعي: حياتهما هما، وظفرا بالنعمة التي يستحقانها. بول لا يسرد القصة سردا يعتمد على تسلسل الأحداث، بل يضع أبطاله منذ البداية في موقف حدي يدفعهم إلى أن يراجعوا بأفكارهم حياتهم كلها وأن يستخلصوا النتائج؛ فهو يتخلى عن المنظور الواحد، فسلسلة الأحداث نفسها تتنشط من عدة جوانب، وبهذا تكتسب أحداث الرواية غنى إنسانيا، وكذا هو الحال في رواية "البليارد في التاسعة والنصف" (1959) وهي رواية شاملة وكثيرة الأشخاص ويشمل زمن السرد النصف الأول من القرن العشرين (1907-1958). تصور الرواية تاريخ أجيال ثلاثة هي أسرة المعماريين فيميل Fahmel التي رفضت بإصرار المشاركة في الواقع البغيض لبلد أصبح مجنونا اسمه ألمانيا. على أن العبرة في نظر بول ليس التصوير المجرد للموقف النموذجي، بل العبرة في لحظة القرار والفعل، وهذا الموقف تمثله شخصية الأم فيميل التي تقرر بأن تعترض بعنف على الحياة المزيفة للعصر الحاضر حيث إنه ما زال هناك ناس يجلسون في مناصب كبيرة على حين كانوا يتسنمون وظائف عالية في الحكومة النازية.

وبمسدس مسروق تطلق النار على الوزير، شخص يوشك أن يسير بألمانيا إلى الطريق الذي تخشى عواقبه، لكنها لا تصيبه إصابة قاتلة، وإطلاق النار لم يكن دافعه الثأر، بل من أجل الحيلولة دون وقوع شر آخر ومصائب أخرى في المستقبل. والطلقة رمز للاحتجاج على النزاهة الكاذبة لجيل لم يئن الأوان بعد لكي ينسى ما مر به من شرور وويلات. وتدخل مصح الأمراض العقلية، المكان الحقيقي للحب الأخوي والإنسانية الحقة، خلافا للواقع المزيف في عالم ليس عقلانيا إلا في ظاهره!

---

*محاضرة القيت في دار المدى بدمشق

صـلاة الحـرب

مارك توين

ترجمة : صائب خليل

كان ذلك زمن العظمة والمجد. في طول البلاد وعرضها يدوي النداء الى القتال، والناس يهبون الى السلاح، وتشتعل في صدر كل مواطن، شعلة الوطنية المقدسة. طبول الحرب تقرع وموسيقى الحماس في كل مكان، لعب المسدسات تطقطق، والالعاب النارية تصفر وتفرقع. في كل يد، وبعيدا على امتداد السقوف والشرفات، ترفرف الاعلام وهي تلمع تحت الشمس. في كل يوم تنطلق مسيرة من المتطوعين منحدرة في الشارع الرئيس، فرحين بأناقة بدلاتهم العسكرية الجديدة، تحييهم الاصوات الفخورة للاباء والامهات والاخوات والحبيبات، وهي تختنق بالعواطف السعيدة اثناء مرورهم بهم. في كل ليلة تحتشد الجموع وهي تنصت لاهثة الى الخطب الوطنية تخترق اعماق قلوبهم، فيقاطعونها كل بضعة بعواصف من التصفيق والدموع تسيل على خدودهم. في الكنيسة يعظ القساوسة التضحية للعلم والوطن ويتوسلون الى اله المعارك العون في تحقيق غايتنا النبيلة بعبارات تطفح بالفصاحة والغيرة وتحرك كل اذن صاغية. لقد كان بالفعل زمنا سعيدا مباركا. اما حفنة الطائشين الذين تجرأوا على الاعتراض على الحرب والتشكيك بعدالة واستقامة طريقها، فقد تلقوا تحذيرا صارما شديد الغضب جعلهم ينكمشون على انفسهم ويتوارون عن الانظار حفاظا على سلامتهم، ولا يعودون الى تصرفاتهم المهينة ثانية.

وجاء صباح الاحد.. ستغادر الجحافل في الغد الى الجبهة. امتلأت الكنيسة بالناس. كان المتطوعون حاضرين تملأ وجوههم الفتية احلام الامجاد الحربية. صور التحرك العسكري الصارم، التجحفل، الهجوم المندفع، السيوف اللامعة، هزيمة العدو، الهياج، دخان البنادق يغلف ساحة المعركة، المطاردة العنيفة، واخيرا الاستسلام! ثم العودة الى الوطن. ابطال تحمل النياشين، تستقبل، تقدس وتغمر في بحار ذهبية من التبجيل.

وقرب المتطوعون، جلس احبتهم، سعداء، يحسدهم الجيران والاصدقاء الذين ليس لهم اولاد او اخوة يرسلونهم الى سوح الشرف، لينتصروا للعلم، او للموت كأنبل ما يكون الموت. واستمر القداس، وقرئ فصل الحرب من التوراة وتليت الصلاة الاولى لتهز البناء بعدها موسيقى الاورغ الفخمة، وينهض الجمع بنبضة واحدة. عيون تلتمع وقلوب تخفق وهي تنشد ذلك الدعاء العظيم

++يا اله الرهبة! يا صاحب الامر! الرعد بوقك والبرق لك السيف++!

ثم تلى ذلك، الصلاة "الطويلة". لم يستطع احد يوما ان يتذكر مثيلا لها في التضرع الخافق بالاحساس واللغة الجميلة. كانت التماسا لأبينا الرحيم العطوف ابدا، ان يرعى جنودنا الشباب في مهمتهم النبيلة، ان يساعدهم، يطمئنهم، ويشجعهم لأداء عملهم الوطني. ليباركهم ويحميهم يوم العراك وساعة الخطر. ان يحملهم في يده القادرة، ويقوي عزيمتهم ويثبت ثقتهم ويمنحهم النعة في دفقة الهجوم الدامية. ان يساعدهم لتحطيم العدو،

وهنا دخل القاعة الرئيسة شيخ غريب وهو يمشي بتمهل وبلا ضوضاء. كانت عيناه مركزتين على الواعظ، وجسمه الطويل مغطى برداء يمتد حتى قدميه، ورأسه مكشوف وتسيل خصلاته شعره الابيض كالشلال على كتفيه، اما وجهه الجهم فكان شاحبا بشكل غير اعتيادي. كان شاحبا الى درجة تثير الفزع.

سار في طريقه بصمت ودون ان يلتفت الى العيون التي تتبعته متسائلة، ودون تردد صعد الدرج ليقف الى جانب الواعظ منتظرا! لم ينتبه الواعظ، وقد اغلق عينيه اغراقا في خطبته المؤثرة، الى وجود هذا الزائر الى جواره. انهى الواعظ خطبته بكلمات تلفظها بتضرع ملتهب: "لتبارك جيوشنا وتمنحنا النصر، يا الهنا، ابانا وحامي بلادنا وعلمنا".

عندها لمس الغريب ذراعه ودفعه برقة جانبا، فتحرك القس مأخوذا بالدهشة، وترك مكانه له. تفحص الغريب الجمهور المذهول لبرهة، بعينيه اللتين تشتعلان ببريق مدهش، ثم تكلم بصوت عميق:

"لقد اتيت من العرش.. احمل رسالة من الله العظيم". اصابت الكلمات الحضور بالذهول، الا ان الغريب استمر "لقد استمع الله الى صلاة خادمه راعي الكنيسة، ويبلغكم انه سيستجيب لها ان كانت تلك رغبتكم، بعد ان اطلعكم على تبعاتها... واقصد كل تبعاتها. فكثيرا ما صلى البشر دون ان يدركوا كل ما تحمل صلواتهم من تبعات ان هي تحققت، الا اذا تمهلوا وتفكروا".

"لقد تلى خادم الله وخادمكم صلاته، فهل تمهل وهل تفكر؟ هل كانت صلاة واحدة؟ كلا.. بل اثنتين: واحدة تلفظ بها، اما الثانية فلا. لقد وصلت كلتاهما الى اذنيه، وهو السميع لكل سؤال، ما قيل منه وما لم يقل. فكروا بهذا ولا تغفلوه: ان توسلتم لبركة لانفسكم فاحذروا! فلربما، وبلا قصد منكم صببتم اللعنة على جار لكم. فان صليتم ان تمطر السماء حقولكم العطشى، فقد يصيب ذات الماء حقول جاركم بالضرر".

"لقد استمعتم الى خطبة خادمكم... النصف الذي تلي منها. وانا مأمور من الله ان اوصل اذنكم النصف الذي لم يلفظ. النصف الذي صلى من اجله القس، والذي صليتم انتم ايضا من اجله بصمت وتحرق في قلوبكم. وربما دون تفكير وقصد؟ الله يحسن الظن بكم"!

لقد سمعتم هذه الكلمات: "امنحنا النصر، ربنا ايها الاله" وهذا يكفي. فالصلاة التي تليت بكليتها تختصر في هذه الكلمات الحبلى بالمعاني. لم يكن هناك داع للشرح والتفصيل. فعندما صليتم للنصر فقد صليتم للعديد من تبعاته دون ان تعلموا. تبعاته التي لا يأتي بدونها ابدا ولامناص لها من السير وراءه حيث يجول. لقد سقط النصف الصامت من صلاتكم هو الاخر على روح الاله السميع فأمرني ان اترجمه لكم بكلمات فاستمعوا اليه!

"يا ابانا العلي، سيذهب شبابنا، فلذات اكبادنا، ذوي الروح الوطنية الى المعركة. فكن قريبا منهم! كن معهم ..في روحهم..ونحن ايضا سنترك سلام الدفئ اللذيذة في

لنمزق جنودهم الى خرق دامية بشظايا قذائفنا، والهمنا القدرة لنغطي حقولهم الباسمة بالجثث الشاحبة لمحيي وطنهم. خذ بيدنا لنغرق دوي بنادق المعركة بصراخ الجرحى من جنودهم وهي تتلوى من الالم. كن معنا يا الهنا لنذري بيوتهم المتواضعة بزوابع النار العاصفة. ساعدنا ان نعصر قلوب ارملهم باحزان لا نهاية لها، وان نشردهم فيهيموا في بقايا ارضهم الموحشة مع اطفالهم الصغار بلا مأوى ولا صديق، يتسربلون بالخرق ويلويهم الجوع ويكسر شفاههم الظمأ. ان تلهو بهم اشعة الشمس الحارقة صيفا، ورياح الزمهرير شتاء، محطمة نفوسهم، يتعثرون من الاعياء، يتوسلون اليك الملجأ فلا تجيبهم. لاجل خاطرنا نحن الذين نعبدك، انثر امالهم هباء ولتصيب لعنتك حياتهم، ولتطيل سفرهم المر فلا ينتهي، ولتثقل خطواتهم ولتبلل دموعهم دروبهم. لطخ الثلج الابيض يا الهي بدماء جروح اقدامهم المتقرحة! اننا نسألك ذلك بروح محبته، هو منبع الحب، والملجأ المخلص ابدا وصاحب كل من احاطت به الالام وطلب عونه بقلب تائب متواضع. امين!

سكت الشيخ قليلا، ثم قال: هذا ما صليتم من اجله، فان كنتم ما زلتم ترغبون به، تكلموا! فرسول الروح الاعلى ينتظر"!

عندها اعتبر الناس الشيخ مجنونا يهذي، لان احدا لم يفهم مما قاله شيئا.